قِصَّةُ
كَاتِبِ الْمَمْلَكَةِ

تأليف يارم سين

فِي أَعْمَاقِ المَمْلَكَةِ القديمة "لَافْرَايَالْ" الإفريقيّةِ، حَيْثُ تَمْتَدُّ الجِبَالُ الصَّخْرِيَّةُ كَأَشْبَاحٍ عِمْلاَقَةٍ تَحْتَ سَمَاءٍ كَمِدَةٍ يَمْلَؤُهَا غُبَارُ المَعَارِكِ الَّتِي لاَ تَنْتَهِي، كَانَ المُحَارِبُ "تَالُومِير" يَقِفُ صَامِتاً فِي أَقْصَى صُفُوفِ الجَيْشِ الخَلْفِيَّةِ. لَمْ يَكُنْ "تَالُومِير" يَمْتَلِكُ خَيْلاً مُطَهَّمَةً، وَلاَ دُرُوعاً ذَهَبِيَّةً تَعْكِسُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، بَلْ كَانَ يَرْتَدِي لَأْمَةً مِنْ حَدِيدٍ صَدِئٍ ثَقِيلٍ، يَئِنُّ حِينَمَا يَتَحَرَّكُ، وَتَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الغُبَارِ وَالرُّطُوبَةِ. وَكَانَ يَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ خُوذَةً مِغْفَرِيَّةً مُغَلَّقَةً، لَمْ يَرَ أَحَدٌ وَجْهَهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، حَتَّى ظَنَّ البَعْضُ أَنَّهُ بِلاَ مَلاَمِحَ.





فِي المُنتصَف، كَانَ الأَمِيرُ "كُورنْثَار" يَمْتَطِي جَوَاداً أَبْيَض كَالثَّلج، يَرْتَدِي دِرْعاً مَصْقُولَةً بِمَاءِ الذَّهَبِ وَالمَرْجَانِ، وَيَطُوفُ بَيْنَ الجُنُودِ مُتَبَاهِياً. وَكُلَّمَا مَرَّ بِـ "تَالُومِير"، كَانَ يَحُثُّ جَوَادَهُ لِيَرُشَّ عَلَيْهِ الطِّينَ، ثُمَّ يَقْهَقِهُ صَارِخاً أَمَامَ المَلَإِ: «أَنْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّبَحِ! مَا قِيمَةُ حَارِسٍ لاَ خَيْلَ لَهُ وَلاَ صُورَةَ تَهَابُهَا الأَعْدَاءُ؟ إِنَّ المَجْدَ وَالنَّصْرَ خُلِقَا لِلْمُصْطَفَيْنَ مِنْ أَصْحَابِ الأَجْسَامِ العَاتِيَةِ وَالدُّرُوعِ القَوِيَّةِ!»

كَانَ الجُنُودُ يَضْحَكُونَ بِاسْتِهْزَاءٍ، بَيْنَمَا كَانَ "تَالُومِير" يَبْتَسِمُ بِهُدُوءٍ خَلْفَ خُوذَتِهِ. لَمْ يَرْفَعْ صَوْتَهُ، وَلَمْ تَتَبَدَّلْ نَبْرَةُ أَنْفَاسِهِ، بَلْ كَانَ يَهْمِسُ فِي السِّرِّ: «لَيْسَتِ الخَبِيئَةُ فِي الطِّينِ الَّذِي نَطَأُهُ، بَلْ فِي الرُّوحِ الَّتِي تُحَرِّكُهُ... لاَ يَعْلَمُ سِرَّ النِّيَّةِ إِلاَّ مَنْ خَلَقَ القَلْبَ.»

كَانَ قَلْبُهُ خَالِياً تَمَاماً مِنَ الحِقْدِ؛ لاَ يَرَى فِي سُخْرِيَةِ "كُورنْثَار" إِلاَّ جَهْلاً يَرْتَدِي حَرِيراً.

لَمْ يَكُنْ "تَالُومِير" مُجَرَّدَ حَارِسٍ غَامِضٍ، بَلْ كَانَ فِي الأَصْلِ القَائِدَ الأَعْلَى لِجُيُوشِ المَمْلَكَةِ وَكَاتِبَ الرَّسَائِلِ الخَاصَّةِ قَبْلَ أَعْوَامٍ خَلَتْ. بَعْدَ أَنْ شَهِدَ بَطْشَ المُلُوكِ وَسَفْكَ دِمَاءِ الأَبْرِيَاءِ فِي سَبِيلِ المَجْدِ الزَّائِفِ، نَذَرَ نَذْراً مَهِيباً لِلَّهِ: أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْ اسْمِهِ وَرُتْبَتِهِ، وَأَنْ يَسْتُرَ وَجْهَهُ بِخُوذَةٍ صَدِئَةٍ لاَ تُفَارِقُهُ، وَيَلْتَزِمَ أَقْصَى صُفُوفِ الخَلْفِيَّةِ كَأَقَلِّ الجُنُودِ شَأْناً. كَانَ يَرَى فِي حَدِيدِهِ الصَّدِئِ تَكْفِيراً عَنْ أَوْزَارِ السَّيْفِ، وَفِي اسْتِهْزَاءِ البَشَرِ زُهْداً يُطَهِّرُ نَفْسَهُ مِنَ الكِبْرِ.



أَمَّا الأَمِيرُ "كُورِنْثَار"، فَلَمْ يَكُنْ سُلُوكُهُ نَابِعاً مِنْ شَرٍّ مُجَرَّدٍ، بَلْ كَانَ نِتَاجاً لِضُغُوطٍ سِيَاسِيَّةٍ وَتَرْبِيَةٍ صَارِمَةٍ فِي بَلَاطِ المَمْلَكَةِ. بِصَفَتِهِ وَلِيّاً لِلْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةٍ تَطْحَنُهَا المَعَارِكُ، كَانَ يُوَاجِهُ طَمَعَ القَادَةِ العَسْكَرِيِّينَ وَتَشَكُّكَهُمْ الدَّائِمَ فِي أَهْلِيَّتِهِ لِلْقِيَادَةِ.



لِذَا أُشْرِبَ مُنْذُ صِغَرِهِ عَقِيدَةً عَسْكَرِيَّةً تُقِرُّ بِأَنَّ «السَّلْطَنَةَ هَيْبَةٌ بَصَرِيَّةٌ، وَأَنَّ إِخْضَاعَ الرَّعِيَّةِ وَإِرْهَابَ الأَعْدَاءِ لاَ يَتِمَّانِ إِلاَّ بِبَهْرَجَةِ القُوَّةِ وَاسْتِعْرَاضِ الثَّرْوَةِ».

مِنْ هَذَا المَنْظُورِ، كَانَ "كُورِنْثَار" يَرَى فِي وُجُودِ مُحَارِبٍ بَائِسٍ كَـ "تَالُومِير" — بِدِرْعِهِ الصَّدِئِ وَصَمْتِهِ المُرِيبِ فِي أَقْصَى الصُّفُوفِ — تَهْدِيداً مُبَاشِراً لِلْمَعْنَوِيَّاتِ وَإِهَانَةً لِصُورَةِ الجَيْشِ المَلَكِيِّ الَّذِي يُنْفِقُ العَرْشُ أَمْوَالاً طَائِلَةً لِتَلْمِيعِهِ.




6

وَفِي لَيْلَةٍ سَاكِنَةٍ انْكَسَفَ فِيهَا القَمَرُ وَتَغَشَّتِ السَّمَاءُ بِحُمْرَةٍ قَانِيَةٍ، اهْتَزَّتِ الأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ المُعَسْكَرِ. مِنْ أَعْمَاقِ "أَجَمَةِ الظَّلَامِ" — تِلْكَ الغَابَةِ المَلْعُونَةِ الَّتِي لَمْ يَطَأْهَا بَشَرٌ وَعَادَ سَالِماً — خَرَجَ الكَائِنُ الأُسْطُورِيُّ "زَيْرَافَاسْ".

كَانَ "زَيْرَافاس" أَسَداً عِمْلَاقاً بِحَجْمِ الجَبَلِ الصَّغِيرِ، تَنْبَعِثُ مِنْ لِبْدَتِهِ جَذَوَاتُ نَارٍ حَقِيقِيَّةٍ تَتَطَايَرُ مَعَ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَعَيْنَاهُ كَجَمْرَتَيْنِ مِنَ النَّارِ المُتَّقِدَةِ. زَأَرَ زَئِيراً يَقْطَعُ القُلُوبَ، فَتَشَقَّقَتِ الأَرْضُ، وَانْهَارَتْ الخِيَامُ، وَتَسَاقَطَتِ الدُّرُوعُ المُذَهَّبَةُ عَنْ أَكْتَافِ الفُرْسَانِ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، انْهَارَتْ هَيْبَةُ "كُورِنْثَار"؛ سَقَطَ عَنْ جَوَادِهِ، وَبَالَتْ خَيْلُهُ مِنَ الهَوْلِ دمًا، فَفَرَّ مَعَ حُرَّاسِهِ هَارِبِينَ فِي الظَّلَامِ، يَرْكُضُونَ وَيَتَسَاقَطُونَ، بَعْدَ أَنْ تَلَاشَتْ شَجَاعَتُهُمُ أَمَامَ الخَوْفِ العَارِي.





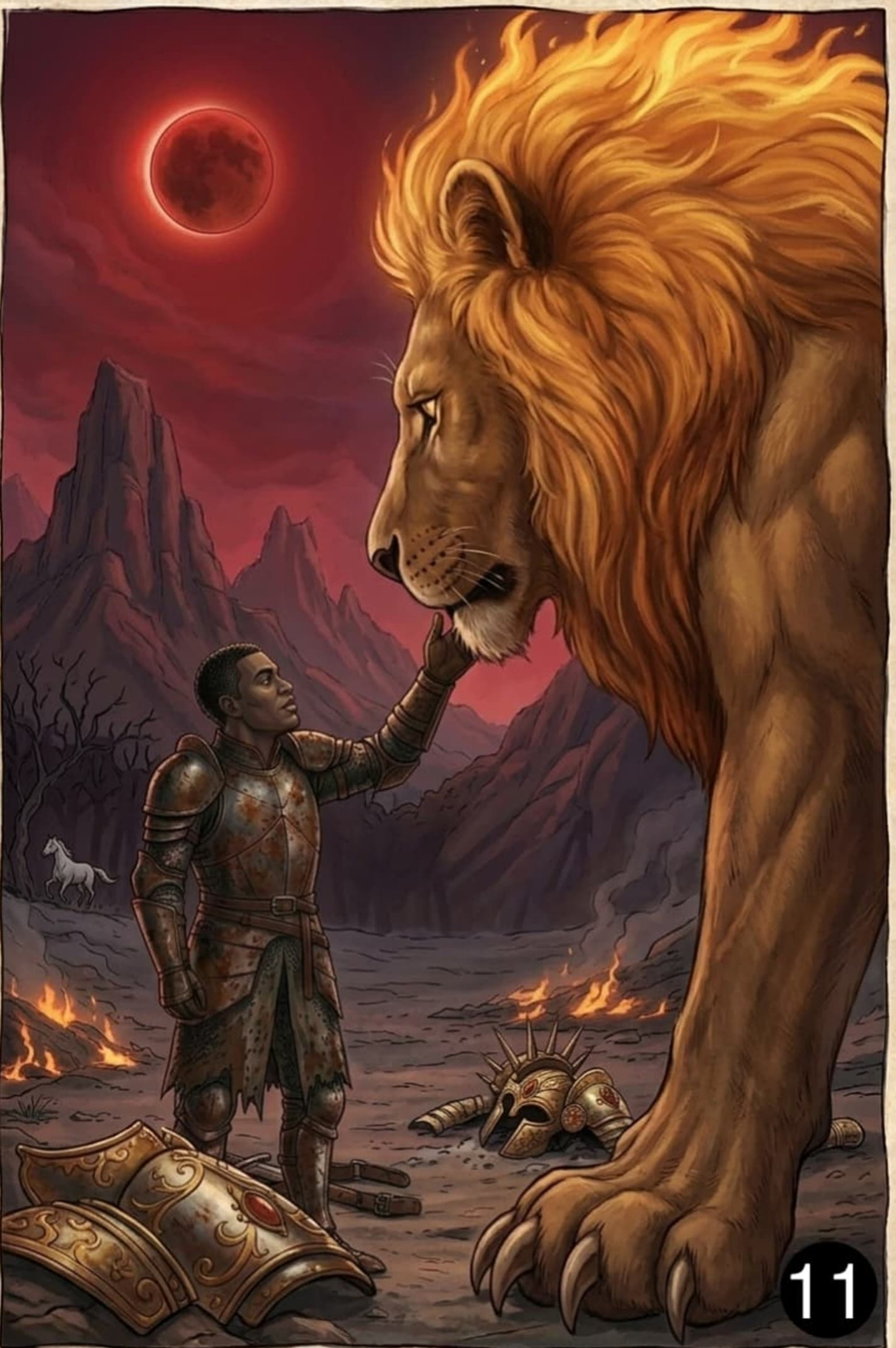


وَسَطَ هَذَا الذُّعْرِ المُطْلَقِ، خَطَا "تَالُومِير" خُطُواتٍ ثَابِتَةً نَحْوَ الوحْشِ الثَّائِرِ.
لَمْ يُخرِجْ سَيْفَهُ، وَلَمْ يَرْفَعْ رُمْحَهُ لِلْقِتَالِ، بَلْ حَلَّ حِزَامَ سِلاَحِهِ وَأَلْقَاهُ أَرْضاً. حَلَّ خُوذَتَهُ الصَّدِئَةَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ إِذْ رَاوَدَهُ شُعُورٌ بَاطِنِيّ عَمِيقٌ بِأَنَّ تَوْبَتَهُ قد قُبِلَتْ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهٍ هَادِئٍ، تَمْلَؤُهُ السَّكِينَةُ وَالسَّلاَمُ.
بَسَطَ كَفَّيْهِ وَمَشَى فِي طَرِيقِ النَّارِ الَّتِي أَخْلَفَهَا الأَسَدُ، ثُمَّ نَادَاهُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ كَأَنَّهُ حَفِيفُ الشَّجَرِ:
«يَا "زِيرَافَاس"... إِنِّي عَبْدٌ لِلْإِلَهِ "لاَف" المَلِكِ الحَقِّ. لَمْ آتِ لِأُهِينَ كِبرِيَاءَكَ، وَلاَ لِأَنَالَ مَجْداً يَتَغَنَّى بِهِ الشُّعَرَاءُ فِي المَلاَهِي وإن كان لِكُلِّ كَائِنٍ حَقٌ فِي هَذِهِ الأَرْضِ.»

كَانَ "زِيرَافَاس" حَارِساً أُسْطُورِيّاً لِلأَرْضِ، اسْتَيْقَظَ مِنْ "أَجَمَةِ الظَّلاَمِ" نَتِيجَةً لِلتَّلَوُّثِ الَّذِي أَحْدَثَتْهُ نِيَّاتُ القَتَلَةِ وَطَمَعُ المُلُوكِ؛ فَالنَّارُ فِي لِبْدَتِهِ كَانَتْ صَدَىً لِغَضَبِ الطَّبِيعَةِ مِنْ حِقْدِ البَشَرِ.

تَوَقَّفَ الأَسَدُ العِمْلاَقُ. اقْتَرَبَ حَتَّى صَارَ نَفَسُهُ المُلْتَهِبُ يَلْفَحُ وَجْهَ "تَالُومِير". نَظَرَ فِي عَيْنَيِ المُحَارِبِ المُسْتَتِرِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِمَا قَطْرَةً وَاحِدَةً مِنْ خَوْفٍ، أَوْ غُرُورٍ، أَوْ غَدْرٍ. رَأَى قَلْباً أَبْيَضَ كَالضَّوْءِ الخَالِصِ.
سَكَنَ زَئِيرُ "زِيرَافَاس"، وَتَلاَشَتِ النِّيرَانُ المُشْتَعِلَةُ فِي لِبْدَتِهِ لِتَتَحَوَّلَ إِلَى وَهَجٍ ذَهَبِيٍّ دَافِئٍ. انْخَفَضَ رَأْسُهُ العَظِيمُ فِي خُضُوعٍ مَهِيبٍ، حَتَّى وَضَعَ جَبْهَتَهُ فِي كَفِّ "تَالُومِير". وَمِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ، صَارَ الأَسَدُ الأُسْطُورِيُّ رَفِيقاً لِلْمُحَارِبِ المَغْمُورِ، لاَ يَفْتَرِقَانِ.







دَارَتِ الأَيَّامُ، وَأَقْبَلَتِ المَعْرَكَةُ الفَاصِلَةُ. حَاصَرَتِ الجُيُوشُ المُظْلِمَةُ المَدِينَةَ المَظْلُومَةَ، وَدَكَّتْ أَسْوَارَهَا بِالمَجَانِيقِ. تَحْتَ وَابِلِ السِّهَامِ المُشْتَعِلَةِ، تَرَاجَعَ "كُورِنْثَار" وَفُرْسَانُهُ إِلَى الحُصُونِ الخَلْفِيَّةِ لِيَحْمُوا أَزْوَاجَهُمْ وَحُلِيَّهُمُ الذَّهَبِيَّةَ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ المُرِيعَةِ، انْطَلَقَ "تَالُومِير" عَلَى ظَهْرِ "زِيرَافَاس" فِي قَلْبِ سَاحَةِ المَوْتِ. قَاتَلاَ بِبَسَالَةٍ تَعْجَزُ الأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِهَا. كَانَ حَدِيدُ "تَالُومِير" الصَّدِئُ يَتَلَقَّى الطَّعَنَاتِ عَنِ الأَطْفَالِ وَالمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا مَلْجَأً، وَكَانَ زَئِيرُ "زِيرَافَاس" يَشُقُّ صُفُوفَ الأَعْدَاءِ وَيَفْتَحُ ثُغْرَاتٍ لِلنَّجَاةِ.

الجُيُوشُ المُظْلِمَةُ" الَّتِي حَاصَرَتْ المَدِينَةَ هِيَ حُشُودٌ مِنْ قَبَائِلِ "الأَشْبَاحِ الدُّخَانِيَّةِ" الَّتِي طَمِعَتْ فِي خَيْرَاتِ "لاَفْرَايَال" بَعْدَمَا عَلِمَتْ بِضُعْفِ قَادَتِهَا وَتَشَظِّي قُلُوبِهِمْ.

كَانُوا يَمْتَطُونَ هُجُناً سُوداً كَاللَّيْلِ، وَيَحْمِلُونَ رِمَاحاً مَغْمُوسَةً فِي سُمُومِ الأَفَاعِي، يُطْلِقُونَ صَيْحَاتٍ تَمْلَؤُهَا الضَّغِينَةُ وَالوَحْشِيَّةُ.

بَعْدَ سَاعَاتٍ مِنَ الجِهَادِ الأَلِيمِ، انْكَسَرَ العُدْوَانُ وَتَرَاجَعَتْ جُيُوشُ الظَّلاَمِ، لَكِنَّ الثَّمَنَ كَانَ فَادِحاً... تَخَضَّبَ الحَدِيدُ الصَّدِئُ بِالدِّمَاءِ، وَانْغَرَسَتْ فِي جَسَدِ "تَالُومِير" وَأَسَدِهِ سِهَامٌ نَافِذَةٌ. سَقَطَ المُحَارِبُ وَرَفِيقُهُ عَلَى التُّرَابِ.








16

وَبَيْنَمَا كَانَ "كُورِنْثَار" يَخْرُجُ مِنْ مَكْمَنِهِ الآمِنِ بِدِرْعِهِ الَّتِي لَمْ تُمَسَّ، يَسْتَعِدُّ لِيَرْفَعَ سَيْفَهُ وَيُعْلِنَ نَفْسَهُ بَطَلاً أَمَامَ الجَمَاهِيرِ المَذْهُولَةِ، حَدَثَتِ المُعْجِزَةُ.

لَمْ يَتَحَوَّلْ جَسَدُ "تَالُومِير" إِلَى رُفَاتٍ؛ بَلْ بَدَأَ الحَدِيدُ الصَّدِئُ يَتَلاَشَى كَالذَّرَّاتِ، وَبَدَأَتِ الجِرَاحُ تُشِعُّ نُوراً يَبْهَرُ الأَبْصَارَ. تَضَوَّعَ فِي الأُفُقِ عَبِيرٌ كَالمِسْكِ الأَذْفَرِ، وَارْتَفَعَ جَسَدُ "تَالُومِير" وَجَسَدُ "زِيرَافَاس" فِي الهَوَاءِ، مُتَوَهِّجَيْنِ بِبَهَاءٍ لاَ يُطَاقُ.

تَسَمَّرَ "كُورِنْثَار" فِي مَكَانِهِ، وَسَقَطَ السَّيْفُ المُذَهَّبُ مِن يَدِهِ المَرْعُوبَةِ لِيَنْغَرِسَ فِي الطِّينِ. غَطَّاهُ خِزْيٌ صَامِتٌ وَهُوَ يَرَى العَامَّةَ وَالمُلُوكَ يَجْثُونَ عَلَى رُكَبِهِمْ، لاَ لَهُ، بَلْ لِرُوحِ "تالومير" الَّتِي ارْتَقَتْ مع رُوحِ رفِيقه إِلَى السَّمَاءِ شَاهِدَةً عَلَى حَقِيقَةٍ كُبْرَى:

«لاَ تُقَاسُ الأَرْوَاحُ بِأَجْسَامِهَا وَلاَ بِبَرِيقِ صُوَرِهَا، بَلْ بِمَا كَنَّتْهُ الصُّدُورُ وَأَثْبَتَتْهُ الأَعْمَالُ.»



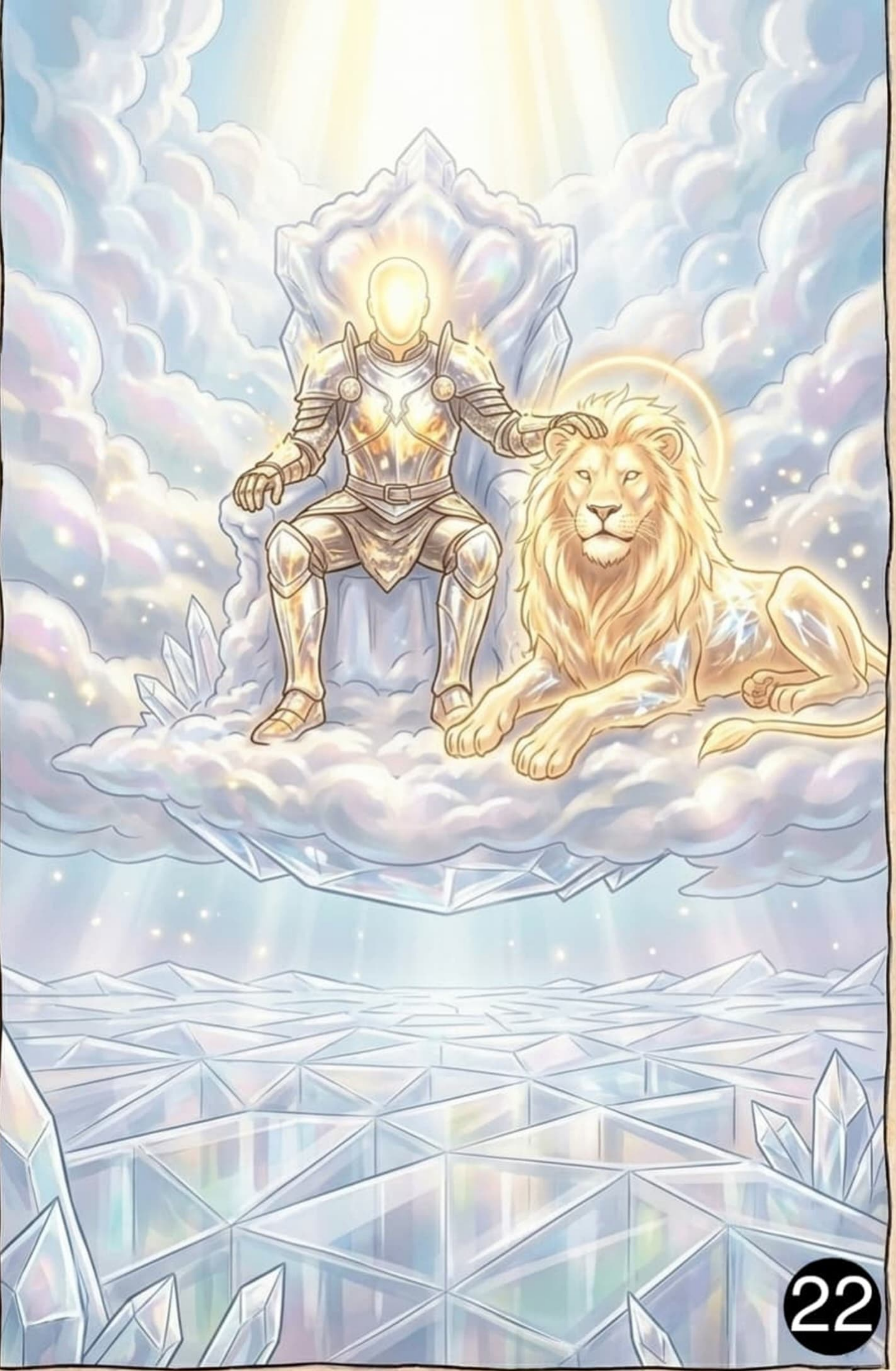




انْفَتَحَتْ حُجُبُ المَلَكُوتِ العُلْوِيِّ، وَعَبَرَتْ رُوحَاهُمَا طَبَقَاتِ السَّحَابِ، بَعِيداً عَنْ عَالَمِ الطِّينِ، وَالصَّدَأِ، وَالصُّوَرِ الزَّائِفَةِ. وَجَدَ "تَالُومِير" نَفْسَهُ فِي عَالَمٍ صَافٍ كَالْبَلُّوْرِ، يَجْلِسُ فَوْقَ عَرْشٍ سَحَابِيٍّ شَاهِقٍ يَعْلُو السَّمَاوَاتِ، حَيْثُ لاَ ظَلاَمَ وَلاَ أَلَمَ. تَبَدَّلَتْ لَأْمَتُهُ الصَّدِئَةُ إِلَى دِرْعٍ نُورَانِيَّةٍ طَاهِرَةٍ وَغَابَتْ مَلاَمِحُ وَجْهِهِ البَشَرِيَّةِ المُنْكَسِرَةِ، فَلَمْ يَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى صُورَةٍ تُمَيِّزُهُ بَيْنَ الخَلْقِ إِذْ أَصْبَحَ وَجْهُهُ شُعَاعاً خَالِصاً لِلْمَحَبَّةِ وَالنَّقَاءِ الَّذِي لاَ يَمُوتُ. وَإِلَى جِوَارِهِ، اتَّكَأَ "زِيرَافَاس"؛ الأَسَدُ المَهِيبُ الَّذِي اسْتَحَالَ كَائِناً مِنْ ضَوْءٍ إِلَهِيٍّ، يَرْبِضُ مَعَهُ فِي أُنْسٍ، وَوَقَارٍ، وَسَلاَمٍ أَبَدِيٍّ.







لَمْ يَكُنْ ارْتِقَاءُ جَسَدِ "تَالُومِير" وَأَسَدِهِ لَحْظَةَ عُبُورٍ فِي الفَضَاءِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ زِلْزَالاً رُوحِيّاً هَزَّ أَرْكَانَ المَمْلَكَةِ بِأَكْمَلِهَا. فَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ، انْقَلَبَتْ فَلْسَفَةُ الحُكْمِ فِي "لَافْرَايَالْ"؛ أَلْغَى "كُورِنْثَار" بَهْرَجَةَ البَلَاطِ، وَأَسْقَطَ شَعَائِرَ إِرْهَابِ الرَّعِيَّةِ، وَفَتَحَ خَزَائِنَ المَمْلَكَةِ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ. لَمْ يَعُدْ يَحْكُمُ بِهَيْبَةِ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ، بَلْ بِنُورِ السَّكِينَةِ الَّذِي وَرِثَهُ مِنْ سِرِّ "تَالُومِير"، لِتَتَحَوَّلَ المَمْلَكَةُ مِنْ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ بَاطِشَةٍ إِلَى مَنَارَةٍ لِلْعَدْلِ وَالسَّلَامِ فِي شَمَالِ الأُخْدُودِ الإِفْرِيقِيِّ العَظِيمِ.




24



